3

روسيا واليهود في القرن التاسع عشر

obeikandl.com

obeikandl.com

إن الاعتبارات النظرية التي طُرحت في الفصل الأول عالمية التطبيق، ولا بد من أخذها بالحسبان عند مناقشتنا وقائع محددة تشتمل على الإبادة الثقافية. إن التأثير المتبادل بين النزعة المحلية (التي تحدُّ فطريًّا من قدرتنا على إضافة معرفة سياقية دقيقة لفهمنا للأحداث غير المحلية)، والنمذجة الشعبية للأخبار، تفسح المجال للتلاعب بالاتجاهات والسلوكات المتعلقة بالمسائل غير المحلية، ويمكن أن يُؤثر هذا التلاعب في معتقدات نسبة كبيرة من السكان وسلوكهم. لقد كانت وسائل هذا التلاعب هي الحكومة، ووسائل الإعلام التي تديرها في ذلك العصر، واستخدام اللغة الانفعالية، بالإضافة إلى طرح (رأي الخبراء)، وكان المعتقد الجماعي هو المنتج النهائي لهذه المعالجة. كانت هذه العملية فاعلة في تاريخ الاستيطان الأوروبي للأمريكيين، وفي توسع الولايات المتحدة غربًا، وقد أنتجت المعتقد الجماعي اللازم لنزع الملكية، والعزل، والإبادة للسكان الأمريكيين الأصليين، وأنتجت أيضًا الاتجاهات التي عرضت الإبادة الجسدية ودعمت الإبادة الثقافية.

ننتقل الآن إلى بيئة تاريخية مختلفة لنموذجنا الثاني، ومسرحها ليس في العالم الجديد وإنما في العالم القديم. لم يكن الصراع في هذا النموذج صراعًا بين أنماط الحياة، بقدر ما كان صراعًا بين الأديان؛ بين المسيحيين واليهود في منطقة السيطرة الروسية في القرن التاسع عشر. على أي حال، فكما في قضية الهنود الأمريكيين حيث كان لعملية العزل دور أيضًا في تفاعل المجموعات المتنافسة، يجد المرء نفسه هنا متذبذبًا بين الإبادة الجسدية والإبادة الثقافية.

المعتقد الجماعي الروسي 1 المعادي للسامية[1]- الجزء الأول

كان اليهود جزءًا من المشهد الديموغرافي (السكاني) الروسي مدةً طويلة، وتعود الأدلة الموثقة للتجمعات اليهودية الصغيرة في المناطق التي كوَّنت في يوم من الأيام المنطقة الجنوبية للاتحاد السوفييتي إلى القرن الرابع بعد الميلاد (Dubnow 1918, 1:1–3). وسواء اعترف المرء أم أنكر أن الخزريين الذين حكموا يومًا جنوب روسيا، وكازاخستان، وأجزاء من أوكرانيا، قد أسسوا مملكة يهودية في أوائل القرن الثامن، فما من شك بأن عدد سكان اليهود في المنطقة ازداد كثيرًا مع مرور الزمن، ومن المحتمل أنهم انتشروا شمالًا وغربًا خلال القرنين العاشر والحادي عشر. وفي تلك

---

1. **معاداة السامية** أو Anti–Semitic مصطلح يطلق على ملاحقة اليهود بصفتهم مجموعة عرقية ودينية وإثنية. استخدم هذا المصطلح لأول مرة من قبل الباحث الألماني فيلهم مار؛ لوصف موجة العداء لليهود في أوروبا الوسطى في أواسط القرن التاسع عشر. تعود أصول معاداة السامية في المسيحية إلى اتهام اليهود بصلب عيسى –عليه السلام– وهو ما ينفيه القرآن الكريم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 157–158)– واضطهاد تلاميذه في القرون المسيحية الأولى، كما اتهم اليهود بتهم أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا، وبسبب هذه التهم طرد معظم اليهود من دول أوروبا الغربية إلى شرق أوروبا ووسطها وبلاد المغرب العربي.

في العصر الحديث، أضاف معادو اليهود لأيديولوجيتهم أبعادًا سياسية؛ ففي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تشكلت الأحزاب السياسية المعادية لليهود في ألمانيا وفرنسا والنمسا، إضافة إلى المطبوعات، مثل بروتوكولات حكماء صهيون التي أيدت نظريات المؤامرة اليهودية العالمية. وأثَّرت النزعة القومية بصورة قوية في ظهور معاداة اليهود السياسية، حيث اتهم أعضاؤها اليهود بأنهم مواطنون غير مخلصين.

وعلى الرغم من أنه يُشك في سامية اليهود الذين ينتمون إلى أصول شتى ولا يجمعهم سوى الدين، وعلى الرغم من أن العرب ساميون، إلا أن الصهيونية خلقت عقدة ذنب عند الغربيين، من خلال عملية غسل دماغ وتضليل مُنظَّمة، حتى أصبحت معاداة اليهود مع كل ما يقترفونه من جرائم من المحرمات، وتحول هذا العداء إلى العرب والمسلمين، كما هو ملاحظ يوميًّا في معظم الدول الغربية. المراجع.

الأثناء انتقل اليهود الذين استقروا في غرب ووسط أوروبا شرقًا في القرن الثاني عشر نتيجةً لاضطهاد اليهود في أواخر العصور الوسطى، وتزايد عدد اليهود العام في المناطق التي تطورت لتصبح دوقية موسكو الكبرى. في القرن الرابع عشر، كان اليهود يُطردون من الممالك الأوروبية الغربية مثل إنكلترا، وفرنسا، وإسبانيا، فذهب بعضهم إلى مملكة كازيمير (Casimir) البولندية الثالثة الناشئة، وأصبحت هذه المنطقة لاحقًا تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية المتوسعة.

ومع تزايد عدد السكان اليهود في المنطقة التي ستُصبح لاحقًا روسيا، لم يندمج معظمهم في المجتمع المسيحي، إذ كانوا ينظرون إلى أنفسهم، وكذلك ينظر إليهم الآخرون، على أنهم مجتمع ديني مستقل بعاداته وثقافته. وقد نشأت هذه الثقافة ضمن بيئة الشتَتيل أو البلدة اليهودية (وهي بلدة يهودية صغيرة في شرق أوروبا). كانت اللغة في الشتَتيل مختلفة بعض الشيء عن اليديشية، وكانت القوانين تأتي من المصادر الدينية (هالاخاه) (Halakha)، وظهر بوضوح اتجاه (نحن وَهُم) تجاه المجتمع غير اليهودي المحيط بهم. وكان لهذا الفصل بين المجتمعات أثر في دور النزعة الانعزالية المحلية في تطوير مفاهيم كل مجموعة تجاه الأخرى، وبالتحديد في حالة المجتمع غير اليهودي، وقد أتاحت تلك النزعة مجالًا لظهور مفاهيم مفادها أن اليهود محكومون بأسطورة سلبية ونموذج سلبي.

ومن دون شك، فإن لأصول هذه الصور النمطية، والأساطير، صلة بفهم غير اليهود (أو سوء فهمهم) لجذور النصرانية. كلنا نعلم الآن أن المسيح أرسل لليهود في إطار الثقافة الفرعية الخاصة بسفر الرؤيا التي كانت سائدة في منطقة فلسطين في ذلك الوقت، وذهب إلى القدس في أثناء الاحتفال بعيد القيامة ليبشر بالتوبة مع اقتراب النهاية الوشيكة للعالم، وهناك وصفه قادة المجتمع اليهودي بأنه محرض يثير المتاعب. وخوفًا من الاضطرابات الشعبية، شارك قادة المجتمع اليهودي مخاوفهم مع السلطات الرومانية التي اعتقلت المسيح وصلبته بحسب المعتقد المسيحي (Ehrman, 1999). ولسوء الحظ، فقد تطور هذا التاريخ ليصبح أسطورة

تفيد بأن اليهود هم)قاتلو المسيح(، ثم ترسخت هذه الأسطورة بقوة في المعتقد الشعبي للمجتمعات المسيحية في أوروبا، وأنتجت، ضمن هذه البيئة المحلية المعزولة، (التصورات الذهنية) لدى كثيرين من غير اليهود. وكما سنلاحظ لاحقًا فقد كانت بالتأكيد تلك هي حالة روسيا، حيث أصبحت المسيحية الأرثوذكسية الشرقية هي ركيزة الهوية الروسية، وصارت معاداة السامية هي سياسة الدولة.

لم تسهم أسطورة كون اليهود قاتلي المسيح، ومعاداة السامية الناتجة عنها، في عزل اليهود عن المجتمعات المسيحية فحسب، ولكنها أيضًا منعتهم من المشاركة في المهن غير الزراعية. كان الوضع نموذجيًّا عندما دعا كازيمير الثالث اليهود إلى بولندا في القرن الرابع عشر، ناويًا أن يجعلهم طبقة وسطى تجارية يتولون المهام المتخصصة في ذلك؛ مثل جمع الضرائب والإتاوات وإقراض النقود (فلم يكن المسيحيون في ذلك الوقت متشجعين لتولي الأعمال المصرفية)، وقد أصبحت هذه المهن الخاصة باليهود نموذجًا للترتيبات الاقتصادية الأوروبية لتلك الحقبة. وعززوا، هم بدورهم، اعتقادًا ثقافيًّا راسخًا بأن اليهود لم يكونوا أعداءً للدين المسيحي فقط (لكونهم قتلة المسيح بحسب الاعتقاد المسيحي)، وإنما يستغلون عامة الشعب اقتصاديًّا (بوصفهم مرابين وجامعي الضرائب والإتاوات). لقد كانت اللغة الانفعالية التي استخدمتها كل من الكنيسة والدولة لترويج هذه المفاهيم سلبيةً دائمًا، وتميل إلى المبالغة على نحو متزايد بالادعاءات حول سلوك اليهود، وكان الادعاء الشائن بأنهم (فرية الدم) (وهو الادعاء بأن اليهود كانوا يقتلون الأطفال المسيحيين لاستخدام دمائهم في شعائرهم) مثالًا على ذلك. وقد أدت هذه الادعاءات إلى اتهام اليهود بأنهم (عناصر طفيلية) تؤذي الفلاحين وتسرقهم، فجعلهم ذلك عُرضة لاعتداءات منتظمة من قبَل السكان بوجه عام، يدعمها أحيانًا المسؤولون الحكوميون بحثًا عن أكباش فداء.

ومن ثم، فإن معاداة السامية لم تكن شأنًا محصورًا بفئة معينة، ولكنها تغلغلت في جميع عناصر المجتمع، من القمة إلى القاعدة، وما زلنا نتذكر قول دانييل ويلنغهام

(في الفصل الأول) بأن «عمليات التفكير تتشابك مع مضمون المعتقد». يمكننا فهم العالم، والتفاعل معه، اعتمادًا على ما نعرفه عنه، فالمعلومات التي يمتلكها معظم الروس، بالإضافة إلى قادتهم، حول اليهود كانت نتاج معلومات مشوَّهة. هذه هي «النسخة الروسية للصور التي رسخها والتر ليبمان في أذهاننا»، فاعتقد الناس أن هذه المعلومات المضلِّلة حقيقة لا مراء فيها، فبُنِي السلوك وأقيمت السياسة على هذا الأساس؛ فكانت وسائل الإعلام الروسية، التي تديرها الدولة غالبًا، تصوغ أخبار اليهود باستخدام لغة فظة وانفعالية سلبية (كما وصفتها كيت أوتلي سابقًا).

وفي خضم هذا التاريخ نشأ المعتقد الجماعي المعادي للسامية، الذي انتشر في روسيا أكثر من أي مكان آخر، وقد قال العالم الاجتماعي أرجون أبادوراي: يمكننا وصف المعتقد الجماعي بأنه أحد (الأمراض الحادة) الراسخة في (الأيديولوجيا القومية المقدسة).

المعتقد الجماعي الروسي المعادي للسامية - الجزء الثاني

سنستأنف قصة هذا المعتقد الجماعي في عهد كاثرين الثانية (Catherine II) العظيمة (1762–1796م)، التي تصفها سيرتها النموذجية بأنها تحررية ليبرالية بالنسبة إلى عصرها؛ أي وُصفت بأنها الحاكم الذي يرغب في متابعة عملية (عصرنة) روسيا على نمط أوروبا الغربية (كانت- في الحقيقة- ألمانيَّة المولد). مع ذلك، فإنها لم تستطع التغلب على الحقد السائد في الأمة كلها ضد اليهود. وفقًا للمؤرخ هيرمان روزنيتال (Herman Rosenthal) كانت كاثرين حالة استثنائية من قاعدة معاداة السامية العامة (سيكون هناك لاحقًا استثناء آخر بين القياصرة)، إذ أرادت الإمبراطورة بعد تتويجها مباشرة أن تسمح لغير الروس، ومن بينهم اليهود، بالدخول إلى المناطق الروسية بهدف تنمية التجارة، وصدرت نسخة مقيدة من هذا المرسوم، الذي استبعد اليهود، في ديسمبر 1762م. ويُعتقد أن هذا العزل لليهود قد

فُرض على الإمبراطورة الجديدة التي كانت ترى شخصيًّا أنه لا داعي لإبقاء اليهود خارج الأراضي الروسية المتوارثة. وكانت كلما سمحت الأحوال تقدمُ استثناءات محلية لأفراد من اليهود مع الحذر بعدم ربط هوياتهم بمجموعات محتقرة قوميًّا.

في عام 1769م سمحت كاثرين لمجموعات يهودية بالاستيطان في سهول جنوب روسيا القفْر، ولكن كان عليها في النهاية- على أي حال- أن تحدد مكان إقامة اليهود في (منطقة الاستيطان) الشهيرة؛ وهي منطقة في روسيا الغربية تمتد تقريبًا من ليتوانيا جنوبًا عبر بولندا، إلى أوكرانيا، حتى شواطئ البحر الأسود.

من الأمور المهمة التي يجب ملاحظتها أن الموقف المناهض لموقف كاترين التحرري تجاه اليهود كان واسع الانتشار، ولم يقتصر ذلك على مصالح المسيحيين الأرثوذكس، الذين دعموا اعتلاءها العرش، بل انبعث ذلك أيضًا من مجالس المدن المحلية، والولاة، ومجلس الأعيان الروسي في سان بطرسبرغ.

وفي عهد الإمبراطورة كاثرين استُورِدَت مطابعُ يملكها القطاع الخاص قانونيًّا إلى روسيا، وبدخول مثل هذه المطابع صدر أمر رسمي بفرض رقابة على المطبوعات، وعَدِّ أي منشورات مخالفة (لقوانين الإله والدولة) غيرَ قانونية (Russian History Encyclopedia 2004)، وقد استمرت رقابة المطبوعات الرسمية إلى ما قبيل الثورة الروسية في العام 1917م. وكما سنرى، فإن الكتابات المعادية للسامية لم تشطب من الصحف والمجلات الروسية، التي أحدثت البيئة الإعلامية التي قادت إلى المذابح الدورية المدبرة.

توفيت كاثرين عام 1796م، وبعد ولاية ابنها «بول» الوجيزة، حكم روسيا ألكسندر الأول (1801–1825م)، وفي عام 1802م أنشأ ألكسندر، الذي كان مشغولًا في حرب مع نابليون بونابرت العدواني، مجلسًا استشاريًّا لدراسة (المسألة اليهودية) في روسيا. وأسفرت مداولاتهم عن صدور القانون اليهودي لعام 1804م الذي تبدو أحكامه للوهلة الأولى تقدمية تؤيد اليهود؛ فعلى سبيل المثال سُمح لأطفال اليهود الموجودين

في منطقة الاستيطان بالدخول إلى المدارس الروسية العامة، ومُنح اليهود حرية شراء الأراضي في (المناطق غير المأهولة)، وحق (إنشاء المصانع بأنواعها)، وأمرت بنود هذا القانون بعدم «إزعاج اليهود أو قهرهم في الأمور التي تتعلق بممارساتهم الدينية، والحياة المدنية عمومًا» ("Statutes Concerning the Organization of the Jews" 1804). ومع ذلك، إذا نظر المرء إلى الدافع لهذه التشريعات، وما الذي منعته، فستكون الصورة أقل إيجابية.

بالنسبة إلى الدافع، تبين المقدمة الافتتاحية أن القياصرة كانوا يستجيبون للمعتقد الجماعي العام للسكان فيما يتعلق باليهود؛ «إذ ورد إلينا كثير من الشكاوى بشأن سوء المعاملة والاستغلال الذي يمارسه اليهود ضد المزارعين والعمال المحليين في تلك الأقاليم التي سُمح لليهود بالاستقرار فيها». لقد كان الافتراض الشائع حول اليهود أنهم مثيرون للاضطرابات، وبحكم كونهم مرابين فإنهم يمثلون مصدر إزعاج وتشويش أينما وجدوا. كان جواب ألكسندر الأول العملي حول هذه الحالة الواضحة خلق أوضاع العصا والجزرة التي تشجع على ترويس اليهود، وإنما هو في الحقيقة تحويلهم إلى الدين المسيحي. كانت تلك مقاربة شبه استيعابية لحل المشكلة، تهدف إلى الإبادة الثقافية الواقعية لليهود في المنطقة الروسية، ومن ثم تشجيع الأطفال اليهود على الالتحاق بالمدارس الروسية، ومنع الأموال عن المدارس اليهودية، بالإضافة إلى مطالبة اليهود باستخدام اللغة الروسية، أو الألمانية، أو البولندية فقط في أثناء التعامل مع الدولة.

شجع دستور 1804م حركة اليهود في المهن التي يكونون فيها أقل استغلالًا لغير اليهود، وهكذا فُضلت فئات المزارعين، والصانعين، والحرفيين، على التُّجار والمواطنين الذين لم يفضلوا. ومن جهة أخرى، كان خيار الإجلاء مطروحًا، وفي بعض الحالات مُنع اليهود من العيش في بلدات ومدن معينة، ومُنعوا أيضًا من الاحتفاظ بممتلكات مؤجرة، أو امتلاك حانات أو ملاه ونواد عامة أو فنادق، ولكن إذا ما عملوا بالزراعة أو أسسوا المصانع الضرورية، فسيُعفَون مؤقتًا من الضرائب

(Dubnow1918, 2:166). سنلاحظ أن ألكسندر الأول سعى أيضًا إلى تنصير اليهود، فأقام في العام 1817م جمعية المسيحيين الإسرائيليين لهذا الغرض.

وفي عام 1804م أعاد أيضًا تفعيل القوانين الأساسية لمراقبة المطبوعات ليجعلها أكثر فاعلية وتجانسًا، وعيَّن الأمير ألكسندر جوليتسن (Alexander N. Golitsyn) في منصب وزير الشؤون الدينية والتربوية، وعينه أيضًا رئيس هيئة مراقبة المطبوعات. كان جوليتسن روسيًّا أرثوذكسيًّا متعصبًا، واستغل منصبه لتعزيز آرائه الدينية (ussian History Encyclopedia 2004). وكانت مقاربته تجاه اليهود تنزع إلى عزلهم؛ لأنهم اعتنقوا المسيحية حديثًا، فعلى سبيل المثال، عمد إلى تقديم أدلة مزعومة تؤكد ذلك للقيصر ألكسندر الأول، الذي منع اليهود في إقليم فورونيز (Voronezh) من العمل «في خدمة المنازل لدى المسيحيين» –(Shumulevich Kipnis, 2005, 2). ومن جهة أخرى، كان لجوليتسن دور في منع كثير من محاكمات اليهود التي اُتُّهموا فيها زورًا بأنهم يقتلون الأطفال المسيحيين ليعجنوا به فطير صهيون. وعلى كل حال فقد كانت هذه التوجيهات تُخترق غالبًا، وفي بعض الأحيان بناء على أوامر صريحة من ألكسندر الأول (Palomino, 1971).

نمت الروح القومية الروسية خلال القرن التاسع عشر، ونما معها قلق رسمي بشأن القوى الطاردة التي يمكن أن تؤسسها الأقلية إذا ما تحولت إلى مجموعات قومية. وهنا، ما كان على الروس إلا أن ينتبهوا إلى الضغوط الموجودة في إمبراطورية هابسبرغ المنافسة. وفي عام 1876م أُجبرت منطقة هابسبرغ النمساوية على مشاركة السلطة مع الهنغاريين فيما عُرف لاحقًا بالحكم الملكي المزدوج. كانت الأوتوقراطية الروسية تبحث عن طريق لتجنب إمكانية جعل الحكم لامركزيًّا، ووفقًا لما عبر عنه المؤرخ إيرنست هاس (Ernest Haas) فقد «كان جواب القياصرة على هذه المسألة هو السير في عملية الترويس»، «وهذا يعني أن على الجميع، ومن بينهم الأقليات، التخلي عن ثقافتهم من أجل الانضمام إلى الثقافة الروسية؛ من خلال تبني الأرثوذكسية الروسية، وإعادة تعريف أنفسهم على أنهم جزء من الجماعة الأساسية الأولية»، وقد

عُرفت هذه العملية باسم سلياني (Sliiani) (صَهر القوميات). وبذلك فنحن مجددًا أمام إستراتيجية تهدف إلى الإبادة الثقافية الفعلية للأقليات، وقد استلزمت هذه السياسة بصورة أساسية تحقيق سيطرة اللغة الروسية، وفي حالة اليهود تقليل أو منع استخدام اللغة العبرية، سواء كتابيًّا أو شفهيًّا.

على كل حال، فقد تجاوز الترويس اللغة، وبصورة ملحوظة عُرِّفت المسيحية الأرثوذكسية على أنها عنصر إيديولوجي للقومية الروسية، وبالعودة إلى ما قاله هاس فقد عرَّف الأمة الروسية بأنها فرديَّة تعاونية، كوَّنتها العوامل العرقية والبدائية مثل الدم والتراب، وتميزت بروح أو كينونة مبهمة، وهذه الروح المتأصلة في الناس جُسدت مؤسساتيًّا بالمعتقد الأرثوذكسي. فإذا كانت الأقلية اليهودية ستصبح روسية حقًّا، فيجب على أفرادها اعتناق المسيحية الأرثوذكسية، ومن أجل هذه الغاية مارس القياصرة الروس سياسة العزل والانصهار معًا عندما كان الأمر يتعلق بيهود روسيا.

تسلَّم نيكولاس الأول الحكم (1825–1855م) بعد ألكسندر الأول، وهو قيصر بدا أنه ملتزم وجدانيًّا التزامًا عميقًا بالافتراضات المعادية للسامية الموجودة في ثقافته، وقد عاش ضمن النموذج المعادي للسامية بكل تفاصيله، تمامًا كالفلاح الروسي أو الأوكراني النموذجي، وكان كتب في مذكراته عن رحلة له في شبابه في روسيا قائلًا: «إن اليهود كانوا سببًا في دمار الفلاحين... واستنزفت مهنهم التجارية قدرة الشعب الروسي الأبيض الذي لا حول له ولا قوة... إنهم علق آبِدون» (Dubnow 1918, 14). لذلك، ليس من الغرابة أنه شعر بالحقد تجاه اليهود عندما تولى العرش. وكان هو الذي أصدر مرسومًا في العام 1827م ينص على أنه يجب تجنيد الصبيان اليهود ابتداءً من سن الثانية عشرة في الجيش الروسي مدة 25 سنة، وهذا ما سُمي بالمراسيم الكانتونية، التي صُممت، جزئيًّا على الأقل، لنقل الصبيان اليهود من بيئتهم الأصلية، وتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية. لقد كانت الطريقة الوحيدة للهروب من هذه العملية هي أن تدفع العائلة اليهودية الرشوة للموظفين الرسميين أو احتراف الزراعة مرة أخرى. كانت الزراعة وسيلة تفضلها الحكومة لإبعاد اليهود

عن الأعمال التي يمكن من خلالها أن يستغلوا المزارعين الروس، وأنشئت أيضًا مدارس خاصة للأطفال اليهود، وإذا ما ارتاب الزعماء اليهود من هذا المشروع الأخير الذي يهدف إلى تحويل أولادهم إلى الدين الجديد فهم محقون.

ذكر نيكولاس في بيانه حول الموضوع: «إن غاية تعليم اليهود هي تقريبهم من المسيحيين، واستئصال معتقداتهم الضارة المتأثرة بالتلمود» (Jewish Virtual Library 2011b). وفيما بعد، في عهد وزير التربية، الكونت سيرغي أوفاروف (Sergei Uvarov)، أصبح هدف القيصر واضحًا؛ ففي عام 1840م أعدَّ أوفاروف (مجموعة مقترحات سرية)، غايتها استخدام إصلاحات تربوية بغية «تدمير القاعدة الثقافية والدينية لليهودية الروسية» (Edwards 1982, 47)؛ لقد كانت الإبادة الثقافية هي اللعبة النهائية لنيكولاس الأول.

يصف المؤرخ باول جونسون (Paul Johnson) هذه المقاربة تجاه اليهود بأنها «الممارسة الحديثة الأولى فيما يتعلق بالتنظيم الاجتماعي، ومعاملة البشر (وهم اليهود في هذه الحالة) وكأنهم تراب أو جماد يجب إزالتهم»، ويقول: إن ذلك كان بسبب نظرة الروس إلى اليهود على أنهم «جماعة سامية إجرامية مكروهة» (Johnson, 1987, 358– 359). ربما، ولكن ظلت الحكومة في هذه المرحلة ترى أنه بالإمكان استيعابهم. لا بد من ملاحظة أن نيكولاس ووزراءه كانوا لا يكنون الحب للأقليات الأخرى التي تخضع لحكمهم الروسي؛ مثل البولنديين الكاثوليك، واللوثريين البلطيك، والمسلمين الموجودين في السهوب الروسية؛ فأولئك كلهم يجب أن يكونوا هدفًا (لسياسة نيكولاس القومية الرسمية) التي عملت على «دفع الشعوب الروسية لاعتناق الأرثوذكسية، وتبني الأوتوقراطية والقومية من غير تفكير»، لكن قُدِّر على اليهود، الذين تختلف عاداتهم الدينية والقومية اختلافًا جوهريًّا عن العرف الذي وضعه نيكولاس (Edwards 1982, 45) أن يُقتلعوا من مكانهم، ويوضعوا في مكان آخر، و(يجرفوا) بطريقة عنيفة متكررة.

استخدم نيكولاس قوانين مراقبة المطبوعات التي ورثها لكي يحقق غاياته في «الترويس»، ولم يكن يريد محو الأفكار والقيم اليهودية فقط، ولكنه تطلَّع أيضًا إلى إبعاد الأفكار الغربية التي بدأت منذ اندلاع ثورة الديسمبريين التي فجرتها طبقة الأعيان الروسية، والتي خشي أن تُعرض العقائد الروسية الأصلية للخطر. وهنا يجب ألا ننسى أن الروس اتهموا مواطنيهم اليهود، منذ عهد نابليون، بأنهم قنوات لنشر الفكر الهدَّام. وفي عام 1826م، وعلى أمل توجيه الرأي العام للقبول بآراء الحكومة والأوضاع السياسية الراهنة، وُسِّع قانون مراقبة المطبوعات إلى 230 مادة (كانت نسخة ألكسندر الأول في العام 1804م ستًّا وأربعين مادة)، وتبعًا لذلك نُشر (قانون الرقابة الكنسي)، مؤكدًا حق الكنيسة الأرثوذكسية بمنع أي نص، أو عمل فني أو مسرحي، يتعارض مع تعاليم الكنيسة.

يمكن القول إن التعليم الإلزامي والرقابة كانا ركنا (القومية الرسمية) لنيكولاس الأول، وقد كانت تلك حقًّا مقاربة ساذجة لتوحيد الثقافة؛ لأن طمس يهودية اليهود الروس صعبة؛ تمامًا مثل اقتلاع أفكار معاداة السامية المنتشرة في كل مكان بين عديد من اليونانيين الأرثوذكس في روسيا. كان المعتقد الجماعي المسيطر على كلتا الجماعتين قد تعمق كثيرًا، وأصبحت معرفة كل مجموعة بالأخرى قد وُضعت في قوالب نمطية ضيقة، بحيث لم يعد بالإمكان تغييرها خلال أجيال قليلة.

كان حكم خليفة ألكسندر الأول؛ ألكسندر الثاني، الذي دام من (1855–1881م) أخف وطأة؛ إذ كان ليبراليًّا إلى حد ما؛ لأنه كان الرجل الذي حرر الأقنان أخيرًا في عام 1861م. وفي عهد ألكسندر الثاني أيضًا ألغيت المقررات الكانتونية، وسُمح لبعض الفئات اليهودية؛ مثل الأطباء و(التجار المفيدين)، بالعيش خارج منطقة الاستيطان. وازداد عدد اليهود في كل من سان بطرسبرغ، وموسكو، وأوديسا، والمدن الكبرى الأخرى، وأصبحوا فاعلين في الحياة المهنية والفكرية في تلك المدن. وقد وصف عديد من المؤرخين هذه المرحلة بأنها مرحلة ليبرالية في حياة اليهود الذين كانوا تحت السلطة الروسية (Johnson, 1987, 359).

لعل العفو الذي أصدره ألكسندر الثاني عن اليهود لم يكن لأسباب إنسانية، بل كانت مقاربته الليبرالية ذرائعية؛ إذ إنه تسلَّم السلطة مع نهاية حرب القرم، وقد حمَّل مسؤولية الخسارة في هذا الصراع لتخلف روسيا، وشعر- مثلما شعرت كاثرين العظيمة- بأن اليهود يمكن أن يساعدوا في عملية التحديث، ولكن أفكاره الإصلاحية- للأسف- واجهت المشكلات ذاتها التي واجهتها مقترحات كاثرين، فقد كانت معاداة السامية الراسخة والمنتشرة، التي كوَّنت المعتقد الجماعي القومي، تعني أن الازدياد الواضح لطبقة أرباب المهن الحرة خارج منطقة الاستيطان كان كافيًا لظهور ردود أفعال مبالغ فيها داخل الطبقة المتوسطة. لقد تعاظمت الإثارة الصحفية التي مفادها أن اليهود أرادوا إنشاء (دولة داخل الدولة)، وبذلك يريدون السيطرة على روسيا، وازدادت شيوعًا (Kniesmeyer & Brecher, 1995).

هدفت إستراتيجية ألكسندر الثاني الليبرالية في روسيا إلى تسهيل قوانين الرقابة نسبيًّا، وفي 6 أبريل 1865م، صدر مرسوم يهدف إلى (تيسير وتسهيل عمل الصحافة القومية)، وهذا يعني أن يُستبدَل بالرقابة المطلقة التي يمارسها جهاز المراقبة، جهازُ إنذار يمكنه، تدريجيًّا، وقف أو إغلاق المنشورات التي تُظهر (توجهات خطرة). ويجب أن نلاحظ أن هذا التغيير قد طُبق فقط في موسكو وسان بطرسبرغ، ولم تعفَ الكتب الصغيرة والنشرات من الرقابة المباشرة؛ بسبب (ضررها البالغ المحتمل) (Russian History Encyclopedia 2004). وظل الحال على ما هو في الماضي؛ إذ لم يُبذل أي جهد لمراقبة الشعور بمعاداة السامية.

في عصر يفتقر إلى استطلاع الرأي العلمي، فإن إحدى الطرائق لمعرفة ما يبدو أنه معاداة بديهية شائعة للسامية، هي فهم مشاعر عدد من كبار الروائيين الروس في القرن التاسع عشر؛ ومنهم ألكسندر بوشكين (Alexander Pushkin) (1799–1837م)، الذي كتب في عهد نيكولاس الأول **اليهودي المكروه**، ونيكولاي غوغول (Nikolai Gogol) (1809–1852م)، الذي كان كاتبًا مؤثِّرًا في عهد نيكولاس الأول، وكان وصفه لليهودي سلبيًّا. وشجع أيضًا فيودور دوستوفسكي (Fyodor

(Dostoyvsky (1821–1881م)، الذي عاصر عهد ألكسندر الثاني، على كراهية اليهود؛ فقد أشار إلى ألكسندر الثاني على أنه (المحرر العظيم) للفلاحين الروس، ومن ثم واصل محاكاة مشاعر نيكولاس الأول؛ لقد طرح السؤال: «من كان أول من انقضَّ عليهم (الفلاحون المحررون) كما ينقض على الضحية؟»، وكان الجواب هو اليهود (Dostoevsky, 1877, 337). تابع دوستوفسكي مؤكدًا أن الروس «بمجموعهم لا ينظرون إلى اليهودي... نظرة كره مسبق»، ومع هذا فقد ادَّعى أن «اليهود في كثير من النواحي هم من ينأون بأنفسهم عن الروس»، و«ينظرون إليهم بشيء من الغطرسة»، ومن ثم أكد- محاولًا ترجيح كفة رأيه- أن اليهود كانوا «سيقتلون الروس إذا سنحت لهم الفرصة، وسيبيدونهم إبادة تامة»، وقال لا عجب من (الكراهية الشديدة) لدى الروس تجاه اليهود؛ إذ سبب اليهود أنفسهم هذه الكراهية .

وكان لدى ليو تولستوي (Leo Tolstoy) الشهير وجهة نظر مختلفة نوعًا ما عن الموضوع، ومع ظل مرتابًا من شخصية اليهود الروس. في عام 1908م قال دوستوفسكي مُجيبًا عن سؤال أحد الصحفيين الأمريكيين: «إذا كان هناك بعض السمات السيئة لدى اليهود الروس، فإن ذلك بسبب الاضطهاد الفظيع الذي عرضناهم له» (The New York Times, 9/ 8/ 1908, SM6).

إن وجهة نظر هؤلاء الكتاب الروس البارزين تعدُّ مثالًا لافتًا للنظر على قدرة المعتقد الجماعي على تشكيل إدراك الحقيقة حتى بين الأشخاص ذوي الثقافة العالية، والذكاء الثقافي الكبير، وعندما يتعلق الأمر باليهود فمن الواضح أن الشخص الذي يمتلك صفات دوستوفسكي ذاتها لا يمتلك المعرفة الدقيقة حول اليهود الحقيقيين أكثر مما يملكه كاهن الأسقفية الروسية الأرثوذكسية.

فيما يتعلق بوصف العقل الذي عرضه ستيفن بينكر في الفصل الأول، فقد حشر في الفئات العقلية المعادية للسامية ثقافيًّا الملاحظات الروسية كلها حول اليهود. وقد خلقت هذه الفئات معايير لما يصدق ولما لا يصدق حول هذه المجموعة، فإذا كان

الروس يَكرهون اليهود، فإنه يتصور أن هذا خطأ اليهود. ومن جهة أخرى كان لدى تولستوي، الذي سار على مبدأ التهدئة الدينية، شيء من الشك بأن اليهود لديهم (سمات سيئة)، ولكنه أظهر أيضًا فكرة أن الاضطهاد الروسي هو الذي دفع بهذه السمات إلى الواجهة.

إن ما أوحى بكون معاداة السامية تمثِّل رأيًا جماعيًّا هو أنه بعد اغتيال ألكسندر الثاني عام 1881م، عادت السياسة الروسية إلى المسار الاضطهادي التاريخي تجاه اليهود، وقد كان ذلك من فعل ابن ألكسندر الثاني ووريثه ألكسندر الثالث (1881–1894م). لم يحصل ألكسندر الثالث على تعليم جيد (كان من المفترض أن يرث أخوه الأكبر العرش، لذلك تلقى التعليم جيدًا، ولكنه توفي فجأة عام 1865م)، وعندما اتَّضح أنه سيصبح ولي العرش، وُضع تحت وصاية المعادي لليهود كونستانتين بوبيدوناستيف (Konstantin Pobedonostsev)، الذي كان وقتئذ أستاذًا في جامعة موسكو، وأصبح موظفًا مرموقًا في حكومة ألكسندر الثالث، وفي النهاية أصبح مديرًا عامًّا للمجمع الكنسي للكنيسة الروسية الأرثوذكسية. شجع بوبيدوناستيف التعصب الفطري لدى ألكسندر الثالث (فقد أعاد القيصر الجديد سياسات الرقابة الصارمة)، وغرس في ألكسندر الثالث الاعتقاد بأن جوهر الوطنية الروسية يكمن في الاهتمام بالعقيدة المسيحية الأرثوذكسية، وقد دفعت هذه النزعةُ ألكسندر إلى أن ينظر إلى اليهود الموجودين تحت الحكم الروسي على أنهم غرباء وخطِرون. وفي عام 1889م كتب ألكسندر: «يجب ألا ننسى أن اليهود قد صلبوا المسيح وسفكوا دماءه الثمينة» (Riasanovsky, 2000, 395). لم يكن هذا مجرد معتقد أسطوري لشخص ما (مع أنه الملك في هذه الحالة)، فوفقًا لتقارير السفارة البريطانية في ذلك الوقت، فقد انتشرت «فكرة أن اليهود يذبحون الأطفال المسيحيين ليصنعوا من دمهم فطير صهيون، على نطاق واسع في روسيا» (Perlmann, 1981, 303) لقد انغمس القياصرة، بالإضافة إلى المواطنين، في النموذج الفكري المعادي للسامية.

عززت معاداة السامية الشك لدى القيصر الجديد بأن اليهود كانوا فاعلين في المجموعات الثورية، ومن بينها تلك التي اغتالت والده ألكسندر الثاني. مما لا شك فيه أن بعض الشباب المثاليين اليهود قد شاركوا في المجتمعات الثورية في ذلك الوقت، ولكن عضوًا ناشطًا واحدًا فقط- وفقًا لدبناو- شارك في المجموعة التي اغتالت القيصر، وكانت امرأة تدعى هيسيا هوفمان (Hesia Hoffman)، وقد استخدم القتلة منزلها قبل الهجوم. لقد كانت وظيفة المعتقد الجماعي السائد، الذي سمح باستخدام اليهود أكباشَ فداء، المبالغة في وصف دور تلك المرأة بأنه (دور مهم)، ولم يمر وقت طويل قبل أن تبدأ الصحف الروسية المتصلة بالحكومة بالتلميح بأن اليهود كانوا وراء اغتيال ألكسندر الثاني، ومن ثم انتشرت الإشاعات بالتجهيز لهجمات ضد المجتمعات اليهودية الريفية. كان لهذه الأفعال غير المراقبة التي مارستها الصحف- سواء عن قصد أو من غير قصد- دور النبوءة المحققة لذاتها (Dubnow, 1918, 244–243)، إذ ما لبثت أن بدأت المناطق الروسية التي يقطنها اليهود تشهد مذابح، بدا كثير منها مسموحًا به رسميًّا.

أصدر ألكسندر الثالث بعد توليه العرش بعام واحد ما سمي بقوانين مايو، وكانت (قوانين مؤقتة) استمرت ثلاثين عامًا تقريبًا، وقد جددت وزادت من نشر القيود على يهود روسيا. في البداية مُنع اليهود من الإقامة خارج مدن وبلدات محددة، ومُنعوا من الحصول على عقود الإيجار والقروض العقارية بعيدًا عن تلك المدن والبلدات، وكان من غير القانوني أن يمارس اليهود أي أعمال أيام الأحد، ثم أضيفت فيما بعد قيود أخرى عليهم، وما لبث أن مُنع اليهود من العمل محامين، أو من الزواج من المسيحيين، إلا إذا أصبحوا مسيحيين، وفُرضت قيود على عدد الطلاب اليهود الذين سيدخلون المدارس الثانوية أو الجامعات.

علل بعضهم- ومنهم ألكسندر سولجنتسين (Alexander Solzhenitsyn)- منع قوانين مايو اليهودَ من السكن خارج مدن وبلدات محددة، بأنها جزء من محاولة حمايتهم من عنف المذابح المدبرة (Devlin, 2002, 193). لكن يبدو هذا من المستبعد

نظرًا إلى كراهية ألكسندر الثالث الدينية تجاه اليهود وتورط حكومته في المذابح المنظمة. إذا ما نظرنا إليها مجتمعة، فإن قوانين مايو، والمذابح التي حصلت في أواخر الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر، أدت إلى نزوح متعاظم لليهود من المناطق الروسية، وانتهى المطاف بمعظمهم في الولايات المتحدة.

في نوفمبر من العام 1894م، توفي ألكسندر الثالث بمرض كلوي عن عمر يقارب 48 عامًا، فتسلَّم الحكم بعده ابنه الأكبر سيئ الحظ نيكولاس الثاني (1894–1917م)، الذي كان آخر قيصر روسي. بسبب موت أبيه المفاجئ، فإن تعرُّف نيكولاس على إدارة السلطة مبكرًا كان ضئيلًا، وعندما تسلَّم العرش وهو في السادسة والعشرين من العمر لم يكن قد مارس أي عمل سوى أنه كان مديرًا لهيئة السكك الحديدية السيبرية، وعضوًا في المجلس العسكري للدولة، وقد قرر- بسبب الأوضاع الحالية- أن يتبع سياسة والده المتحفظة، معلنًا: «ليعلم الجميع أني سأبذل كل ما بوسعي للمحافظة على مصلحة الأمة كلها، ومبدأ الحكم المطلق، بالقوة والمتانة ذاتها التي كانت على عهد والدي الراحل» (Radziwil, 1931, 100).

من سوء حظ نيكولاس الثاني أن الظروف جعلت الوفاء بوعده مستحيلًا، وتحولت سنوات حكمه إلى انهيار اجتماعي وسياسي في روسيا، وكما آلت إليه الأمور، تبيَّن أن ذلك كان سيئًا ليس بالنسبة إلى القيصر فقط، ولكن أيضًا بالنسبة إلى يهود روسيا؛ لأنه- كما عبَّر شلومو لامبروزا (Shlomo lambroza)، وجون كلير (John Klier)- «كلما تعرَّض النسيج السياسي لخطر الانهيار- سواء من خلال اضطراب الفلاحين أو العمال، أو الأنشطة السياسية اللاثورية- كان اليهود يمثلون هدفًا ضعيفًا، ولم تشعر الحكومة بأي حافز للدفاع عنهم»، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك في ثقافة تقوم على معاداة السامية منذ قرون.

في مواجهة الأوضاع التاريخية المتغيرة، أثبت نيكولاس أنه متعصب جدًّا، وربما ببساطة لم يكن ذكيًّا بما يكفي لمواجهة التحديات الناتجة عن الانهيارات، وقد

أظهرت الحرب الروسية اليابانية (1904–1905م) عيوب القيصر هذه. وعلى الرغم من خسارة الأسطولين الروسيين، وظهور مشكلات لوجستية بتزويد الجيش الروسي بالمؤن الذي كان يبعد 6000 ميل عن سان بطرسبرغ على محاذاة سكة الحديد العابرة لسيبيريا، والهزائم المتكررة في الميدان، والمشكلات النقدية، لم يكن نيكولاس الثاني يتخيل احتمال الخسارة، لا بل إنه ظن- وفقًا لكاتب السيرة الذاتية روبرت وارث (Robert Warth)- أن الحرب كانت جيدة للشعب الروسي؛ لأنها ستعزز وطنيتهم. وفي النهاية توسطت والدة القيصر لديه لإقناعه بالموافقة على مفاوضات السلام.

أشعلت هزيمة عام 1905م الاضطرابات والثورة، وردًّا على ذلك، وبناء على نصيحة الكونت سيرغي ويت (Sergei Witte)، وهو الرئيس التقدمي نسبيًّا لمجلس الوزراء، أصدر نيكولاس بيان أكتوبر، واعدًا بالحقوق المدنية، وبمجلس تشريعي منتخب للبلاد؛ مجلس (الدوما). جاء الإعلان مفاجأةً لكل من الشعب الروسي وبيروقراطيته النائية، وكانت نتيجته، بالنسبة إلى الموظفين الحكوميين على الأقل، أنه كان سببًا للفوضى، وكان الانهيار شبه التام لأجهزة الرقابة الحكومية جزءًا من هذه الفوضى. اشتكى ويت، الذي كان لديه شكوك حول التحول الليبرالية، بأن «البيان قد فصل ماضي روسيا عن حاضرها كالمشرط».

بعيدًا عن هذه الفوضى نجد أيضًا تزايدًا بالحركات الرجعية العنيفة التي كانت غالبًا متحالفة مع أعضاء الحكومة المحافظين، وأظهرت هذه الحركات الرجعية- كما سنرى لاحقًا- كثيرًا من النقمة تجاه اليهود، ترتكز على أنهم كانوا مجموعة خائنة، زُعم أنها قادت الثورات المناهضة للقيصر، وقد عبَّر ويت عن هذا الأمر بقوله: «حدثت انفجارات شعبية عنيفة في جميع أرجاء الدولة، ومن ضمن ذلك المظاهر المتضمنة مذابح منظَّمة لليهود، ومن المؤكد أن هذه المذابح قد نُظمت (أو على الأقل شُجعت) من قبل السلطات المحلية».

كان الكونت يتمتع بسمعة أنه ودود تجاه اليهود، وقد قال لتيودور هرتزل (Theodor Herzl) عندما التقى به في سان بطرسبرغ عام 1903م: «أنا شخصيًّا أعد نفسي صديقًا كبيرًا لليهود» (Frankel, 1949, 100). صحيح أنه كان لديه أصدقاء يهود، حتى إنه وظَّف اليهود، ولكن، على كل حال، عندما يتعلق الأمر بسياسة الحكومة فإن موقفه كان مدفوعًا بالبراغماتية (الذرائعية)، وقد أخبر ذات مرة ألكسندر الثالث أنه «لو كانت مسألة اليهود ستُحل بإغراق يهود روسيا في البحر الأسود، لكانت المشكلة انتهت، ولكن لأن هذه العملية غير ممكنة فإن الحل سيكون الإلغاء التدريجي لعدم الأهلية الشرعية التي يعانيها اليهود» (HarCave, 2004, 42– 43)، وقد أعاد توجيه هذا المقطع لهرتزل في عام 1903م .

أيًّا كان رأي ويت وتأثيره في نيكولاس الثاني، فإن سياسات نيكولاس خلال العقد الأول من حكمه لم تقدم شيئًا لتقويض الاعتقاد الشائع بأن اليهود كانوا متورطين في الاضطرابات التي زعزعت الإمبراطورية، وقد أشارت مراسلات السفارة البريطانية في روسيا إلى وزارة الخارجية في لندن أن نيكولاس (لديه كراهية خاصة تجاه اليهود)، معتقِدًا- كأبيه- أن اليهود «يستحقون كل ما حدث لهم؛ لأنهم هم أنفسهم أرادوا أن يبقى دم المسيح (علينا وعلى أولادنا)».

وهكذا، فقد استمر اضطهاد اللاسامية من دون انقطاع؛ مثلًا في أكتوبر من العام 1898م، طرد نيكولاس اليهود من موسكو وسان بطرسبرغ، ووافق على أن يكونوا أكباش فداء. وشهد العام 1903م إصدار بروتوكولات حكماء صهيون (وهو نص يصف خطة اليهود من أجل تحقيق سيطرتهم على العالم)، الذي كتبه في حقيقة الأمر البوليس الروسي السري. وأيضًا في 8–6 أبريل من ذلك العام حدثت المذبحة الشائنة التي استمرت ثلاثة أيام في كيشنيف (Kishinev)، وبيسارابيا (Bessarabia)، وكانت هذه المجزرة مثالًا جيدًا على قوة البيئة الإعلامية المشبعة بالانفعالات السلبية القوية لتحويل حدث ما (في هذه الحالة مقتل طفل مسيحي من قبل قريبه) إلى شغب دموي ضد مجموعات مذعورة. نشرت الصحيفة المعادية للسامية بيساريبيان

(Bessarabian) تلميحًا بأن اليهود قتلوا الطفل، ووصفت صحيفة أخرى تدعى (ذا لايت) (The Light) الجريمة بأنها أُرتكبت لاستخدام دم الطفل لصناعة فطير صهيون؛ وهو ما يعني أن الطفل قد قُتل لهذه الغاية. وقد كانت النتيجة مقتل 47 وإصابة 97 بجروح بالغة، وكلهم من المواطنين اليهود، وسُلب ودُمِّر 700 منزل، وقد تركت السلطات المحلية أعمال الشعب تأخذ مجراها قبل أن تتدخل في اليوم الثالث.

عند قيام ثورة 1905م عُدَّ اليهود من بين المشاركين الأكثر فاعلية، وحتى بعد مرور سنوات ظن أحد كبار موظفي ألكسندر سولجنتسين (Alexander Solzhenitsyn) أن الأمر كان كذلك (Ericson and Mahoney, 2006, 491)، وقد قيل إن نيكولاس نفسه ظن أن لليهود دورًا بارزًا في المؤامرات الثورية.

يبدو أن الواقع هنا لا صلة له بحقيقة أنه كان مقدَّرًا على اليهود أن يكونوا ضحية العناصر الرجعية بسبب مشاركتهم في الثورة، وقد عبَّر سولجنتسين عن ذلك بقوله: «بسبب غضب الدوائر الحاكمة في بطرسبرغ من طبيعة العنف المستمر (1905–1907م)، فقد استسلمت للرأي البسيط المغري بأنه لم يكن في روسيا أي خطأ دستوري، وأن الثورة كلها كانت مؤامرة يهودية حاقدة» (Ericson and Mahoney, 2006, 495).

طالب (اتحاد الشعب الروسي)، وهو الحزب السياسي الخبيث المعادي للسامية، في عام 1905م، وضمن هذه البيئة الإعلامية، بإحياء جميع القيود التاريخية الروسية على اليهود، وجنَّد (الميلشيا) الخاصة به التي كانت تدعى المئات السود (Black Hundreds)، التي حرّكت المذابح المدبرة والاغتيالات ضد (اليهود وأفراد الفئة المثقفة الراديكالية)، ولم يتدخل نيكولاس الثاني ضد هذه الأعمال، وربما كان متعاطفًا معها (Jewish Virtual Library 2011b).

كان المعتقد الجماعي الروسي المعادي للسامية راسخًا جدًّا حتى إن هؤلاء الذين ثاروا ضد الحكومة عام 1905م قد ثاروا أيضًا ضد اليهود، ونتيجة لذلك عندما

اندلعت الاحتجاجات ضد الحكومة الروسية لتتحول إلى هجمات على اليهود، حصلت مجزرة أخرى في كيشنيف في عام 1905م.

ومن ثم فإن التحول المفاجئ تجاه الليبرالية، الذي بدأ مع بيان أكتوبر، والذي أمل يهود روسيا أن يقلل القيود السياسية والمدنية المفروضة عليهم، لم يستطع إلغاء قرون من العقيدة العنصرية، بل إن هذه العقيدة كانت شرارة حركة رجعية عنيفة. وكما قال نسيب القيصر ألكسندر رومانوف (Alexander Romanov)، «لم يعد تقديم تنازلات أو حقوق جديدة لليهود واردًا، لأننا لا نستطيع أن نكون رحماء مع عرق يكرهه الشعب الروسي».

الخلاصة

لاحظ عالم الاجتماع المعروف أرجون أبادوراي (Arjun Appadurai) أن العنف الممارس على الأقليات هو طريقة شائعة تمارسها الجماعات السائدة لتطوير هوياتها وتعزيزها. وللتعبير عن ذلك بطريقة أكثر همجية، استشهد بما كتبه فيليب غورفيتش (Philip Gourevitich) حول رواندا، الذي قال لنا: إن «إبادة الجنس، بالنتيجة، هي ممارسة في بناء المجتمعات». إذا كان الأمر كذلك فإن العنف المعادي للسامية يمكن أن يُنظر إليه على أنه واحد من الأدوات الأساسية لبناء الأمة الروسية.

كان الروس مترددين بين الإبادة الجسدية والإبادة الثقافية، تمامًا كتجربة المستوطنين الأوروبيين ضد السكان الهنود الأصليين في أمريكا الشمالية الشمالية، وعلى نحو مماثل كان التوجه إلى الإبادة الجسدية فرديًّا وغير منظم، فقد رأينا مجازر (في أمريكا)، ومذابح جماعية (في روسيا) بدلًا من معسكرات الاعتقال. إن محاولات الإبادة الثقافية لم تنفذ تنفيذًا كافيًا وفاعلًا، مع أن الحكومة القيصرية بحثتها بشيء من التفصيل. لقد كان أقرب شيء إلى تنفيذ هذه الإستراتيجية هو المراسيم الكانتونية الشائنة التي أصدرها نيكولاس الأول عام 1827م التي قضت

بأخذ أبناء اليهود من عمر 12 سنة، ووضعهم في بيئة استبدادية لمدة 25 عامًا؛ بهدف إعادة صياغتهم ثقافيًّا ودينيًّا.

وكان الروس من غير اليهود- بالتأكيد- ضحايا معاداتهم للسامية التي ترعرعت تاريخيًّا؛ إذ غلَّفت فهمهم للمجتمع عن طريق نشر مرض في صميم (أيديولوجيتهم المقدسة للأمة). إن انغلاقهم ضمن مجتمعات فلاحية م، وبلدات وأحياء معزولة، لم يمكِّنهم من اكتساب معرفة حقيقية عن اليهود، ولا عن تاريخهم في أوروبا عمومًا، وفي روسيا خصوصًا، أو نمط حياتهم وطموحاتهم. ما كانوا يعرفونه هو فقط ما تخبرهم به الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، والحكومات القيصرية والإقليمية، والصحافة الرسمية الخاضعة لإشراف الدولة، وقد خلق الأدب الشعبي المعادي للسامية خلال قرون من الزمن تصنيفات في أذهان الأغلبية ألغت الحاجة إلى التحقق والأدلة. إن التلميح والغمز بعبارات عاطفية سلبية كان كافيًا للأخذ بأي إشاعة أو رواية مشوهة وإدخالها في التصنيف الفكري لليهودي الطفيلي، وتبنيها من ملايين الروس من الطبقات ومستويات التعليم كلها، هكذا كان الفكر الجماعي الروسي فيما يتعلق باليهود.